العَدَاءُ اليَهُودِيُّ لِلإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ فِي القُرْآنِ: الجُذُورُ وَالمَآلَاتُ

◆ د. محمد دكير[1]

■ خلاصة

تتناول هذه الدراسة، موضوع العداء اليهودي للإسلام والمسلمين كما عرضه القرآن الكريم، من خلال قراءة تحليليَّة تفسيريَّة، تتتبّع الجذور التاريخيَّة والعقديَّة لهذا العداء، وتكشف عن أهمّ مراحله وتحوّلاته، منذ البشارة بنبي آخر الزمان، وانتقال النبوَّة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، وصولاً إلى السيرة النبويَّة في المدينة المنورة (يثرب)، وما انتهت إليه من جدال فكري- ديني، ثمَّ صدام عسكري، وما أعقب ذلك من تحذير قرآني عام من السلوك العدائي لليهود. كما تتناول الدراسة الامتدادات اللَّاحقة لهذا العداء بعد وفاة النبي ﷺ، خاصَّة ما تعلَّق بظاهرة الإسرائيليَّات وتأثيرها السلبي في بعض جوانب التراث الإسلامي. وتنتهي ببحث المآلات القرآنيَّة المرتبطة بإفساد بني إسرائيل في الأرض، ومآل الصراع بين المسلمين واليهود الذي سينتهي بدخول المسجد الأقصى مرَّة أخرى، والقضاء على دولة اليهود في فلسطين.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، اليهود، بنو إسرائيل، العداء الديني، الإسرائيليَّات، الإفساد في الأرض.

١ - أستاذ جامعي - المغرب.

Jewish Hostility Towards Islam, Muslims in the Qur'an:
Roots, Outcomes

◆ **Prof. Mohammad Dakir**
Moroccan university professor.

Abstract

This study examines the topic of Jewish hostility towards Islam and Muslims as presented in the Holy Qur'an, through an analytical and interpretive reading that traces the historical and doctrinal roots of this hostility. It reveals the most important stages and transformations, which began with the prophecy of the Prophet of the End Times, the transfer of prophethood from the Children of Israel to the Children of Ishmael, until the Prophet's life in Medina [Yathrib], and the intellectual and religious debates that ensued, followed by military clashes, and the subsequent general Qur'anic warning against the hostile behavior of the Jews. The study also examines the subsequent ramifications of this animosity after the death of the Prophet (peace be upon him and his family), particularly concerning the phenomenon of "Isra'iliyyat" (Israeli traditions) and their negative impact on certain aspects of Islamic heritage. It concludes by exploring the Qur'anic consequences related to the corruption of the Children of Israel on Earth, and the ultimate outcome of the conflict between Muslims and Jews, which will culminate in the re-entry into the Al-Aqsa Mosque and the dismantling of the Jewish state in Palestine

Keywords:

the Holy Qur'an, Jews, Children of Israel, Religious Hostility, Isra'iliyyat, Corruption on Earth.

مقدّمة

حظي بنو إسرائيل واليهود بمساحة واسعة في الخطاب القرآني، سواء من حيث العرض التاريخي أم التحليل العَقَدي، أو النقد الخُلُقي، حتى إنّ سيرة النبي موسى (عليه السلام)، جاءت أكثر السِّير في تاريخ النبوَّات تفصيلاً في القرآن الكريم. وقد جاء هذا الحضور المكثَّف لتاريخ بني اسرائيل واليهود في إطار حوار عَقَديّ وتاريخي عميق، كشف عن أحداث تاريخيَّة متعلِّقة بعدد من الأنبياء والرسل، ووقائع الصراع بين بني إسرائيل وأنبيائهم، والخصائص النفسيَّة والسلوكيَّة لليهود، وما آل إليه أمرهم – في نهاية المطاف- من الغضب واللعنة بعد الإنعام والتفضيل على العالمين.

كما أرَّخ القرآن الكريم لمحطَّات من الصراع الذي خاضته القبائل اليهوديَّة في يثرب وما حولها، مع الإسلام ونبيِّه والمؤمنين بالدين الجديد، منذ البعثة المحمَّديَّة ووصولاً إلى هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى يثرب، وانتهاء بانفجار الصراع المسلَّح بين اليهود والمسلمين الذي أفضى إلى القضاء على كياناتهم الاجتماعيَّة، وإجلائهم عن جزيرة العرب.

في هذا السياق، برزت قضيَّة العداء اليهودي للإسلام والمسلمين بوصفها ظاهرة مركّبة، يمُكن فهم أبعادها في سياقها القرآني والتاريخي؛ حيث كشف القرآن عن الجذور العقديَّة العميقة لهذا العداء، ترتبط بالبشارة بالنبي الخاتم، وانتقال النبوَّة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، وما قدَّمه القرآن من حقائق ووقائع تتعلَّق بتاريخ النبوَّة، مخالفة لما احتضنه التراث الديني والتاريخي اليهودي، وما ترتَّب على ذلك من تحوّلات دينيَّة وفكريَّة وتأريخيَّة، أنهت

احتكار اليهود المديد للزعامة الدينيَّة والروحيَّة، مضافًا إلى تقليص نفوذهم الديني والاجتماعي في جزيرة العرب. من هنا، تسعى هذه الدراسة للكشف عن موقف القرآن من هذه الظاهرة وجذورها، وربط الصراع بين الإسلام واليهود، بما سيقدّمه الوحي الجديد من حقائق، ووقائع السيرة النبويَّة في المدينة المنوَّرة (يثرب)، ثمَّ استقراء مآلات هذا الصراع وتداعياته، وتحذير القرآن من مخاطر العداء اليهودي للدين الجديد والمؤمنين به.

كل ذلك، في إطار منهج علمي يعتمد التفسير التحليلي الموضوعي للخطاب القرآني، مضافًا إلى الاستفادة من المنهج التاريخي باستحضار السيرة النبويَّة والأخبار المتعلِّقة باليهود وعلاقتهم بالمسلمين في يثرب.

أوّلًا: مفهوم العداء اليهودي للإسلام والمسلمين وتجلّياته في القرآن

١ - مفهوم العداء والعداوة في اللغة

العَدَاوَةُ لغة: الكُره والخصام، وتباعد القلوب، وعكْسها الصداقة، وناصبه العداوة: أي أظهرها له، وقصده بها، وهي مشتقّة من عدا، والعدو: التجاوز ومنافاة الالتئام، ويُعتبر بالقلب، فيُقال له العداوة والمُعاداة، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة، فيقال له العدوان والعدو.. ومن المعاداة، يُقال رجل عدو وقوم عدوّ.[1] وقد اقترنت العداوة بالبغض والكراهية، والتحريض والخصام والتنافر والتباعد، وصولاً إلى التورّط في شتّى أنواع الاعتداء والعدوان، سواء اللفظي أم الجسدي على الآخر (موضوع العداوة والكراهيَّة ومحلّهما).

٢- مفهوم العداء في القرآن الكريم وتجلياته..

يُعدّ مفهوم العداء من المفاهيم المحوريَّة في التصوّر القرآني لمسيرة الإنسان في الأرض؛

١ - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن في غريب القرآن، ص٣٢٦.

إذ يرتبط بالصراع بين الحق والباطل، وبين الهداية والضلال، منذ اللحظة الأولى لخلق الإنسان؛ حيث نجد أوّل إعلان قرآني عن العداوة جاء في سياق تحذير الله -تعالى- لآدم عليه السلام من إبليس (الشيطان) بعدما رفض السجود له، فقال سبحانه: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ**﴾ [طه: ١١٧].

فهذه أوّل عداوة مُعلنة في تاريخ البشريَّة، وهي عداوة ذات طبيعة قوامها الاستكبار والحسد ورفض الانقياد لأمر الله: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [ص: ٧٦]. وبعد وقوع المعصية وهبوط آدم وحواء إلى الأرض، أعلن القرآن طبيعة العلاقة المستقبليَّة بين الأطراف المعنيَّة بقوله تعالى: ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ [الأعراف: ٢٤]. يقول (السيد الطباطبائي): « كان الخطاب لآدم وزوجه وإبليس، وعداوة بعضهم لبعض هو ما يشاهد من اختلاف طبائعهم، وهذا قضاء منه تعالى».[1] ومن ثمّ فالعداوة هنا، لم تعد حادثة طارئة، بل أصبحت جزءًا من سنن التدافع في الحياة الإنسانيَّة. وهذا ما أكَّدته آيات أخرى، عندما أشارت إلى استمرار هذه العداوة عبر التاريخ، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يوسف: ٥]. فهو عدوّ ظاهر العداوة، وثابت الموقف منها، وسيعمل على إضلال الإنسان وصرفه عن مسار الهداية: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [ص: ٨٢].

لم تقتصر العداوة في القرآن على الشيطان وحده بل امتدَّت لتشمل كل جبهة باطلة تقف في وجه الرسالات السماويَّة، قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ [الأنعام: ١١٢]. فهذه سُنّة ماضية في تاريخ الدعوات، فكلّ نبي واجه جبهة عدائيَّة مركَّبة، تتآزر فيها شياطين الإنس والجنّ، ويقوم عداؤهم على التضليل الفكري، وتشويه الحقّ، وتزيين الباطل، وإعلان الحرب بكل أشكالها وصنوفها. لذلك تحدّث القرآن عن عداوة الكافرين، والمشركين، والمنافقين، والمفسدين،

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٨، ص٣٥.

والمترفين، للأنبياء وأتباعهم، وهي عداوة تتجلّى في صُور شتّى: التكذيب، والاستهزاء، والتحريض، والافتراء، وصولاً إلى القتل والإيذاء المعنوي والجسدي..إلخ.

وفي سياق الحديث عن العداء والعداوة تجاه الدين الجديد والرسالة الخاتمة وأتباعها، كشف القرآن عن حقيقة ستكون لها مصاديق على أرض الواقع، وتداعيات مستقبليَّة تتعلَّق بخصوصيَّة عداء اليهود للإسلام ونبيّه والمؤمنين به، يقول عزَّ من قائل: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ [المائدة: ٨٢]. فاللافت في الآية أنَّها لا تقتصر على بيان وجود عداوة، بل تصفها بالشدَّة (أشد الناس عداوة)، وهو تعبير يُفيد التأكيد على وجود هذه العداوة وأنَّها شديدة، وهذا وصف مُخيف لطبيعة العداء اليهودي للإسلام ونبيّه والمؤمنين بالدين الجديد، ويمُكن فهم طبيعة هذه الشدَّة من خلال تجلياتها التاريخيَّة التي عرضها القرآن نفسه، كما أشار القرآن الكريم - في مورد التحذير أيضا للمؤمنين – من البُغض الشديد والحقد الكامن في نفوس اليهود تجاه الإسلام والمؤمنين به، يقول عزَّ من قائل: ﴿**وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [آل عمران:١١٨][1]. وبالتالي، فقد كشف القرآن مُبكرًا عن طبيعة الموقف اليهودي من الإسلام والمسلمين، أي العداء الشديد والبُغض الذي سيظهر في الأقوال والأفعال، ناهيك عمّا يُخفونه في صدورهم، فهو أكبر ممّا يُظهرونه، يقول (السيد الطباطبائي): «ولم يُبيِّن ما في صدورهم بل أبْهَم؛ للإيماء إلى أنَّه لا يُوصف لتنوّعه وعظمته»[2]. وقد وصف القرآن الحالة النفسيَّة لبعضهم وكيف تتجلّى هذه العداوة والبغضاء: ﴿**وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ**﴾ [آل عمران: ١١٩].

---

١ - اختلفوا في الذين نهى الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم؟ قال جمهور المفسرين إنّهم اليهود؛ لأن بعض المسلمين كانوا يشاورونهم في أمورهم ويؤانسونهم لما كان فيهم من الرضاع والحلف. وقيل هم المنافقون؛ وذلك لأنَّ بعض المؤمنين كانوا يغترُّون بظاهر أقوالهم فيفشون إليهم الأسرار.

٢ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٣، ص٣٨٧.

وهذه العداوة والبغضاء الشديدة للإسلام ونبيّه وللمؤمنين، لم تكن اعتباطيَّة أو حالة نفسيَّة ووجدانيَّة طارئة لدى بعض اليهود، وإنَّما حالة راسخة ومستمرَّة؛ لأنّ لها جذورًا وأسبابًا عميقة في التاريخ والعقيدة، مضافًا إلى الصراع السياسي والاجتماعي والديني الذي انفجر بين اليهود والمسلمين، مع قدوم رسول الإسلام إلى يثرب وإقامته للدولة الإسلاميَّة الفتيَّة، واعتناق قبيلتي الأوس والخزرج للإسلام، ومن ثَمّ الوضع الجديد والمُقلق الذي وجد اليهود أنفسهم فيه على جميع المستويات.. وهذا ما سنتحدَّث عنه بالتفصيل؛ لأنّه في صلب موضوع هذه الدراسة.

٣ - مفهوم «اليهود» في القرآن الكريم

هناك ثلاث تسميات وردت في القرآن الكريم لها صلة وخصوصيَّة حسب السياق الواردة فيه: بنو إسرائيل، واليهود، وأهل الكتاب. فبنوا إسرائيل -تاريخيًّا- هم ذرّيَّة نبي الله يعقوب عليه السلام المُلقّب بـ«إسرائيل»، وهو ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، ومنهم انحدر الأسباط الاثنا عشر، وكثير من الأنبياء وعلى رأسهم موسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام. وقد ورد ذكر «بني إسرائيل» في القرآن (٤١ مرة). أما مصطلح "اليهود"، فقد ورد (٧ مرات)، و«يهوديًّا» (مرة واحدة)، ويُقصد به من اتّبعوا شريعة موسى عليه السلام من بني إسرائيل، بعد نزول التوراة، أي جماعة لها ملَّة دينيَّة وشريعة معينة، كما يُشير القرآن إلى ذلك: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٠]. أما مصطلح «أهل الكتاب»، فقد ورد (٣١ مرة)، والمقصود به اليهود والنصارى الذين أنزل الله عليهم كُتبا سماويَّة، التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام: ﴿**وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الإسراء: ٢]، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام: ﴿**وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ**﴾ [الحديد: ٢٧].

والملاحظ أنَّ الخطاب القرآني يستخدم المصطلحات الثلاثة في سياقات ودلالات متعدِّدة، بنو إسرائيل، وهو وصف عرقي(نسبي)؛ أي أبناء يعقوب عليه السلام ويشمل جميع ذرِّيَّته، مؤمنهم وكافرهم، وقد كان فيهم الأنبياء والصالحون، وقد خوطبوا كثيراً في القرآن بصيغة (يا

بني اسرائيل)، في سياق تذكيرهم بالنعم التي أنعم الله بها عليهم، وتذكيرهم بميثاقه، ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة:٤٧]، وإشارة إلى علوّهم وإفسادهم في الأرض، ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:٤].

أمَّا من آمن بشريعة موسى والتوراة المنزلة على موسى عليه السلام من بني إسرائيل، فالخطاب الموجَّه لهم غالبًا باسم اليهود، وتعلّق بانتقاد المعتقدات الخاطئة التي اعتقدوها: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ [المائدة:٦٤]، ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**﴾ [التوبة:٣٠].

وكذلك ورد ذكر اليهود في مورد الحديث عمَّا اتّصفوا به من صفات مذمومة: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ..**﴾ [المائدة:١٣]. مضافًا إلى الحديث عن القبائل اليهوديَّة التي كانت حاضرة في يثرب والحجاز، وتفاعلت مع الإسلام ودعوته في زمن البعثة وإقامة الدولة الإسلاميَّة.

أمَّا الخطاب المُوجَّه لهم باعتبارهم أهل كتاب، فقد اتّسم بالبُعد التذكيري والإرشادي والتوجيهي والوعظي العام، ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران:٧١].

ثانيًا: الجذور التاريخيَّة والدينيَّة للعداء اليهودي للإسلام

١ - انتقال النبوَّة إلى بني إسماعيل

يقدّم القرآن الكريم عرضًا موجزًا لتاريخ البشريَّة، مركّزًا على أبرز محطَّاتها، بدءًا بخلق

آدم عليه السلام ونزوله إلى الأرض، ثمَّ مسيرة الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله لهداية الناس. ويُولي القرآن عناية خاصَّة بسلسلة الأنبياء المنحدرين من إبراهيم عليه السلام، ولا سيَّما من فرع إسحاق ويعقوب، كيوسف، وموسى، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى بن مريم عليهم السلام، وجُلّهم من بني إسرائيل، إلى جانب إسماعيل بن إبراهيم وعدد من الأنبياء الذين بُعثوا في جزيرة العرب.

وأثناء تناوله لأحداث مفصليَّة في حياة هؤلاء الأنبياء، قدّم القرآن روايات تتضمَّن حقائق تُخالف ما استقرّ في التراث اليهودي، كما استعرض جانبًا واسعًا من تاريخ بني إسرائيل في علاقتهم بأنبيائهم، وهو تاريخ اتّسم في أغلب مراحله بالعصيان والتمرّد، وتكذيب الرسل، ومخالفة الشرائع، وتحريف الوحي بل وبلوغ الأمر إلى قتل الأنبياء. وينتهي هذا العرض إلى تقرير حقيقة مفادها أنَّ مرحلة النبوَّة المرتبطة ببني إسرائيل قد انقضت، وأنَّ مركزها سينتقل إلى فرع إسماعيل بن إبراهيم، أي إلى الأُمَّة العربيَّة والإسلاميَّة بقيادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذه الحقيقة لم تكن غائبة عن التراث الديني لدى اليهود والنصارى؛ إذ تضمَّنت كُتبهم بشارات بالنبي العربي الخاتم، ومنها بشارة عيسى عليه السلام بقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [الصف: ٦]، وهو نبي من نسل إسماعيل. وهذه من الحقائق التي كان اليهود والنصارى يُخفونها إلى أن نزل القرآن ففضحهم، يقول عزَّ من قائل: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ...**﴾ [الأعراف:١٥٧]، بل ذهب القرآن إلى أبعد من ذلك، عندما أخبر بأنَّهم يعرفون نبي الإسلام جيّدًا، من حيث صفاته ونسبه بدقة: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ**﴾ [الأنعام:٢٠]. كما أشار القرآن إلى حقيقة كانت رائجة بين يهود الجزيرة العربيَّة قبل البعثة النبويَّة وهي التهديد بأنَّهم سيحاربون المشركين العرب مع النبيّ الجديد ويستفتحون عليهم، يقول تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ**

لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، أي يطلبون الفتح عليهم ببعثة النبيّ ﷺ وهجرته[1].

لكن ديدنهم، كان ولا يزال، التكذيب والكفر بآيات الله، مضافًا إلى إدراكهم بأنَّ ظهور هذا النبي في مكَّة، يعني خروجهم عمليًّا من دائرة النبوَّة، بعد أن انتقل الوحي إلى بني إسماعيل، وأنَّ مستقبل الهداية الإلهيَّة سيكون عبر الإسلام والنبي العربي، وليس عبر بني إسرائيل واليهود، فكان ذلك سببًا مُهمًّا في نشوء عدائهم للإسلام والمسلمين.

ويُلاحظ أنّ القرآن يعرض هذا التحوّل في سياق حجاج تاريخي قائم على وقائع معروفة لديهم، فما وقع من بني إسرائيل من عصيان للعهد، وانحراف عن الطاعة، وقتل للأنبياء، أدّى إلى انتقال مركز النبوَّة إلى أُمَّة أخرى، لتغدو الامتداد الطبيعي الجديد للرسالة الإلهيَّة في إطار سُنّة الاستبدال.

٢ - المُحاكمة التاريخيَّة: من التفضيل إلى البَوْء بغضب من الله

وفي سياق عرضه لتاريخ بني إسرائيل واليهود، يُقدّم القرآن الكريم - كذلك - سردًا تصحيحيًّا ناقدًا لتجربتهم الدينيَّة والتاريخيَّة، كأنَّه يُعيد كتابة محطَّاتها المفصليَّة في ضوء الوحي الجديد. فهو من جهة يقرّ بجملة من الحقائق التي بقيت في تراثهم ولم تنلها يد التحريف، فيؤكِّد ما خصّهم الله به من نِعَم وامتيازات، ومن جهة أخرى يكشف ما وقع فيه بعضهم من انحراف وتبديل، كما يعرض لوقائع وأحداث تسترّوا عليها أو حرّفوها.

لقد نصّ القرآن الكريم على تفضيل بني إسرائيل على عالمي زمانهم: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٤٧]، وأثبت أنّ

١ - يقول السيد الطباطبائي: كانت اليهود تقول لهم لو بعث محمدﷺ لنخرجنكم (الأوس والخزرج)، لنخرجنكم من ديارنا وأموالنا، فلمَّا بعث الله محمَّدًا ﷺ آمنت به الأنصار وكفرت به اليهود. انظر: نفسير الميزان، ج١، ص٢٢٣.

الله أنزل فيهم الأنبياء والرّسل، ونجّاهم من بطش فرعون: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ..**﴾ [البقرة:٤٩]، واختار لهم الأرض المقدَّسة موطنًا واستقرارًا: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ [المائدة: ٢١]، وأنزل عليهم التوراة هدى ونورًا: ﴿**وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الإسراء:٢].

لكنّ هذا التفضيل لم يكن امتيازًا مطلقًا، بل كان مشروطًا بالاستقامة على الإيمان والتوحيد والالتزام بالشريعة: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ [البقرة:٤٠]. ومن هنا ينتقل الخطاب القرآني إلى إبراز مظاهر الانحراف التي وقعوا فيها، فما إن جاوزوا البحر - وقد عاينوا هلاك فرعون وجنوده- حتى طلبوا من نبيّهم موسى ﷺ أن يجعل لهم إلهًا كالذي لغيرهم: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ثمَّ ما فتئوا أن اتَّبعوا (السامري) الذي صنع لهم عجلاً فعبدوه: ﴿ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ**﴾ [طه: ٨٨]

ويُتابع القرآن عرض مجموعة من صور المخالفة والعصيان، والتمرّد على الشرائع، وتكذيب الأنبياء والرسل، بل والاعتداء عليهم بالقتل: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾ [البقرة: ٨٧]. وبسبب هذا المسلك استحقّ الذين كفروا منهم اللعنة على ألسنة أنبيائهم: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ [المائدة: ٧٨].

وما ورد في القرآن الكريم، تُؤكِّده نصوص العهد القديم، ولا سيّما أسفار الشريعة والأنبياء، فالعلاقة بين الله وبني إسرائيل قائمة على ميثاق مشروط بالطاعة، والأسفار مثل التثنية تجعل البركة والتمكين مرتبطين الالتزام الدقيق بشريعة موسى ﷺ، بينما تُقرّر اللعنات والحرمان عند مخالفتها. كما أنّ أسفار الأنبياء، مثل إرميا وحزقيال، تضمّ نصوصًا شديدة اللهجة في نقد

بني إسرائيل واليهود، وتتَّهمهم بنقض العهد، وعبادة الأصنام، والفساد الخُلُقي، وتصرّح بأنَّ الهيكل والأرض والوعد ليست حقوقًا أبديَّة إذا انقطعت الصلة بالله وشريعته. وبالتالي، فما أورده القرآن موجود ومُتجذِّر في تراثهم التاريخي والديني.

وهكذا، فالنتيجة المنطقيَّة هي: تحوّل التفضيل إلى غضب إلهي شديد، ثمَّ إلى عقوبات تاريخيَّة متعاقبة؛ حيث سلّط الله عليهم من يجتاح ديارهم ويدمّر معابدهم: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولا**﴾ [الإسراء: ٥]، وكتب عليهم التشتّت في الأرض: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا**﴾ [الأعراف: ١٦٨]، مع توعدٍ باستمرار ابتلائهم عبر التاريخ: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وبالتالي، فقد وجد اليهود أنفسهم أمام محاكمة تاريخيَّة وعَقَديَّة وخُلُقيَّة لتجربتهم التاريخيَّة، محاكمة عادلة ومؤيدة بالوحي الإلهي، تعرض حقائق ووقائع تؤيّد بعض ما في أيديهم، وتُصحّح بعضًا آخر، كاشفة مواضع التحريف والتزييف. وبهذا التحدّي المعرفي، سقطت دعوى الاحتكار الحصري للمعارف الدينيَّة وتاريخ النبوَّة، وانكشف أمام العرب الذين لم يكن لهم اطّلاع واسع على تراث النبوَّات السابقة، وجهٌ آخر لتاريخ بني إسرائيل واليهود في جزيرة العرب، في ضوء الوحي الجديد، وهذا ما زاد من حَنقهم وكُرههم وعداوتهم للإسلام ولنبيّه ﷺ.

٣ - حقائق قرآنيَّة مُخالفة لما ورد في التراث التاريخي اليهودي

في سياق هذه المحاكمة التاريخيَّة التي أعلنها القرآن، نجده يُعيد تقويم عددٍ من الأخبار والروايات المتداولة في التراث اليهودي، فيُصحّح ما اعتراها من تحريف أو مبالغة أو ما تخللها من إساءة، ولا سيّما في ما يتعلَّق بصورة الأنبياء وعصمتهم. فقد نسب اليهود إلى بعض الأنبياء الجهلَ واقترافَ الفواحش، بل والانحرافَ عن الوحي والكفر بالله تعالى، فجاء

القرآن مُنزِّهًا لهم، ومؤكِّدًا أنَّه سيقدِّم القول الفصل في ما كانوا فيه يختلفون: ﴿**إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [النمل: ٧٦].

ومن أبرز القضايا التي رفضها القرآن، دعوى كفر النبي سليمان وعبادته الأصنام، تماشيًا مع رغبة زوجاته[1]، فقد أكَّد براءته بقوله: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾ [البقرة:١٠٢]، بل أثنى عليه بقوله: ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص: ٣٠]. كما فنّد زعمهم القائم على الظنّ، قتلَ وصلبِ السيد المسيح عليه السلام: ﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**﴾ [النساء: ١٥٧].

ولم يقتصر التصحيح على هذه الجوانب، بل كشف القرآن - في معرض الردّ على الأسئلة التعجيزيَّة التي وُجِّهت إلى النبي ﷺ بشأن أهل الكهف وذي القرنين-، عن معارف تاريخيَّة دقيقة لم تكن متداولة على صورتها الصحيحة، الأمر الذي أظهر إحاطة الوحي الجديد بما لديهم، وتمييزه بين الحق والباطل.

وقد عبرّ القرآن عن هذه المكانة المعرفيَّة بمفهوم «الهيمنة»؛ إذ وصف نفسه بأنَّه مصدّقٌ لما بين يديه من الكتاب ومُهيمن عليه، قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٤٨]. وبذلك قدّم نفسه مرجعًا، يُقرُّ ما هو صحيح في تراثهم، ويردّ ما دخله التحريف والكذب، كما كشف بعض ما كانوا يتسترَّون عليه: ﴿**قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا**

١ - جاء في الكتاب المقدس (العهد القديم)، سفر الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر: «.. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه.. فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين.. وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه».

﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١]. وبذلك أعاد القرآن تكوين الرواية التاريخيَّة والدينيَّة، ونزع عنهم احتكار هذه المعرفة، وأقام معيارًا جديدًا لمعرفة بعض الحقائق التاريخيَّة والدينيَّة، قائمًا على الوحي الخاتم الذي تجاوز كثيراً ممّا لديهم.

٤ - الكشف عن الانحراف العَقَدي ونسخ الشريعة الموسويَّة

لم يقتصر القرآن الكريم على خوض السجال التاريخي، ولا سيّما ما يتّصل بتاريخ سلسلة النبوَّة الإبراهيميَّة، بل تجاوز ذلك إلى معالجة القضايا العقديَّة الخالصة ومسائل التشريع وأحكام الحلال والحرام. وقد شكّل هذا الامتداد في دائرة هذا الجدل الفكري/الديني لبنةً إضافيَّة عمّقت مسار التوتّر بين الإسلام واليهوديَّة، وأسهمت في تأجيج حالة العداء بين الطرفين.

فعلى مستوى القضايا العقديَّة، وجّه القرآن الكريم نقدًا شديدًا لبعض معتقدات اليهود، معتبراً إيَّاها انحرافًا عن أصل التوحيد، ومجانبةً لما يليق بجلال الله عزَّ وجلَّ. من ذلك عقيدة التجسيم، وطلبهم رؤية الله جهرةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، وادّعاؤهم بُنوّة بعض أنبيائهم لله عزَّ وجلَّ، في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ونسبتهم الفقر إلى الله تعالى، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤].

هذه المُعتقدات – كما يعرضها النص القرآني – تُعتبر خروجًا عن عقيدة التوحيد التي بشّر بها الأنبياء جميعًا، وعلى رأسهم خاتمهم محمد ﷺ التي تقوم على تنزيه الله عن مشابهة خلقه، وعن نسبة النّقص إليه سبحانه.

أما في مجال التشريعات المُتصلة بالعبادات والمعاملات، ومسائل الحلال والحرام، فإنَّ

الوحي المدني - بعد الهجرة - أولى هذا الجانب عناية خاصَّة؛ إذ نزلت فيه أحكام الصلاة والزكاة والصوم والمواريث والمحرمات؛ حيث تأسَّست بذلك منظومة تشريعيَّة تنظّم الحياة الدينيَّة والاجتماعيَّة للمسلمين. وقد كان لهذه الأحكام وقعٌ شديدٌ على اليهود في المدينة؛ لأنَّها خالفت كثيراً ممّا توارثوه من أحكام ينسبونها للتوراة والشريعة الموسويَّة، ومن ذلك مسألة إباحة لحم الإبل المُحرَّم عندهم. وهذا ما جعلهم يدخلون في جدال مع النبي ﷺ، محتجّين بأنَّ دعوته إن كانت امتدادًا لملَّة إبراهيم والأنبياء من بعده، فكيف تخالف ما استقرّ في شريعتهم؟ فجاء الردّ القرآني حاسمًا: ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [آل عمران: ٩٣]، مؤكِّدًا أنَّ بعض ما يعدّونه تشريعًا تعبُّديًا لم يكن إلا تحريمًا عارضًا سابقًا على نزول التوراة. وأنّ الرسالة الجديدة جاءت لتنسخ بعض التشريعات السابقة، وترفع القيود الموضوعة على السابقين: ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الأعراف: ١٥٧].[1]

كما كان لتبديل القبلة أثرٌ بالغ في تأجيج العداء للدين الجديد؛ إذ تحوّل المسلمون من التوجّه في الصلاة نحو بيت المقدس، إلى التوجّه شطر المسجد الحرام بمكَّة، استجابة لقوله تعالى: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: ١٤٤]. يقول (السيد الطباطبائي): ما كانت اليهود وغيرهم تسكت وتستريح في مقابل هذا التشريع؛ لأنَّهم كانوا يرون أنَّه يُبطل واحدًا من أعظم مفاخرهم الدينيَّة وهو القبلة، واتّباع غيرهم لهم فيها وتقدّمهم على من دونهم في هذا الشعار الديني[2].

١ - انظر للمزيد عن مخالفة الاسلام لأحكام التوارة، السيد سابق: اليهود في القرآن، ص٢٢.

٢ - انظر: محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٢ ص ٣١٧.

وقد جاء هذا التحوّل في سياق أوسع، يتمثَّل في تأكيد الانتساب إلى ملّة إبراهيم والارتباط بالبيت العتيق الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ﷺ: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٧]، وفي الوقت نفسه، تأكيد انتقال مسيرة النبوَّة ومسؤوليَّة هداية البشريَّة إلى بني إسماعيل، مُمثّلة في النبي محمد بن عبد الله ﷺ والدين الجديد وشريعته.

وقد واجه اليهود هذا التحوّل بالنقد والاعتراض، كما أشار القرآن: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة: ١٤٢][1]. ونظرًا إلى ما كان للشريعة الموسويَّة - بصيغتها المدوَّنة في التراث اليهودي- من قداسة راسخة في الوجدان، فإنّ مجيء تشريع جديد ناسخٍ لعددٍ من أحكامها، قد أسهم في تأجيج حالة العداء اليهودي للإسلام ونبيّه، وعمّق حالة الرفض والاستعلاء لديهم، وامتناعهم عن الإذعان لما جاء به الإسلام، وهو ما عبرّ عنه القرآن بقوله: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٥].

٥ - الكشف عن الخصائص النفسيَّة والسلوكيَّة لبني إسرائيل واليهود

في سياق المحاكمة التاريخيَّة والدينيَّة التي عرضها القرآن الكريم لبني إسرائيل عمومًا، ولليهود على نحوٍ خاص، لم يقتصر الخطاب القرآني على سرد الوقائع والأحداث، بل تجاوز ذلك إلى كشف البنيَّة النفسيَّة والخصائص السلوكيَّة التي تكرّرت في مسيرتهم التاريخيَّة، كما أبرز ما اتّسمت به غالبيّتهم من خصالٍ كانت موضعَ نقد أنبيائهم وإنكارهم، فأكثرهم فاسقون: ﴿**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

---

١ - انظر: عن أحداث تغيير القبلة، أحمد بن يعقوب: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٣٦١.

ومن أبرز الصفات التي أشار إليها القرآن لخطورتها، قسوة القلب ونقض العهود، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال أيضًا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ..﴾ [النساء: ١٥٥]. ومن خصائصهم كذلك، تلبيس الحق بالباطل، وكتمان ما يعلمون من الحق، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، إلى جانب التعلّق الشديد بالدنيا وكراهيّة الموت: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]. كما أشار القرآن إلى ظاهرة الكفر بالآيات وقتل الأنبياء بغير حق: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، مبيّنًا أنَّ ذلك كان نتيجة العصيان والاعتداء.

ومن الصفات التي سلّط القرآن الكريم عليها أيضًا: الطغيان والحسد، قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٨]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، وأكل المال الحرام (السحت): ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، والنفاق: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]، وعدم التناهي عن المنكر: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]، فضلاً عن عدم الانتفاع العملي بالتوراة مع ادّعاء حملها، كما ضرب لهم المثل بقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. مضافًا إلى صفات أخرى مثل: الغرور، والتَّكبُّر والشعور بالاستعلاء على باقي الأمم، والبخل، والعناد الشديد..إلخ[1].

وبالتالي، فنحن أمام تشريح دقيق للشخصيَّة اليهوديَّة، وكشف عن أمراضها النفسيَّة،

١ - انظر للمزيد عن خصائص الشخصيَّة اليهوديَّة، د. زكريا الزميل ورمضان الصيفي: «صفات اليهود كما يصورها القرآن الكريم: دراسة موضوعيَّة بيانيَّة»، ص٩٧- ١٣٩؛ د. علي محمد الصلابي: صفات اليهود في القرآن الكريم، منشور على موقع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

وانحرافاتها السلوكيَّة، بحيث نستطيع أن نقول إنَّ القرآن قد عرّاهم تمامًا أمام الجميع، وكشف عوراتهم في الماضي والحاضر، وقد قام بذلك في إطار، أوَّلًا: أخذ العبرة والاعتبار، وثانيًا: الكشف عن حقيقتهم للمسلمين، تحذيرًا لهم من خطورة هؤلاء على الدين الجديد والمؤمنين به، كي لا يغترَّ المسلمون بهم في أيِّ زمان أو مكان.

إنّ الحضور المكثّف لبني إسرائيل واليهود في الخطاب والقصص القرآني، من خلال العرض التاريخي لبعض المحطَّات المهمَّة لتجربتهم مع عدد من الأنبياء والرسل، قد كشف أبعاد الصراع العقدي والديني الذي نشأ مع البعثة النبويَّة وظهور الإسلام في مكَّة، ثمَّ انتقاله إلى يثرب (المدينة)، معلنا انتقال النبوَّة إلى بني إسماعيل، الأمر الذي شكّل تحولاً مفصليًا أنهى الزعامة الروحيَّة لبني إسرائيل واليهود، واحتكار المعرفة الدينيَّة والتاريخيَّة المرتبطة بمعظم الأنبياء والرسل الذين عرفتهم البشريَّة، ما أسهم في تأجيج عدائهم للدين الجديد ورسالته الخاتمة.

وفي إطار هذه الرؤية، قدّم القرآن محاكمة تاريخيَّة ودينيَّة تتّسم بالموضوعيَّة والإنصاف، فقد أقرّ بما أنعم الله عليهم من تفضيل، وذكّر بميثاق الله معهم، وفي الوقت نفسه كشف مظاهر الانحراف التي ارتبطت بتجربتهم، من الكفر بالآيات الكثيرة ونقض العهود، وتحريف الوحي، وكتمان الحق، والتعدّي على الأنبياء بالتكذيب والقتل، الأمر الذي أدّى إلى استحقاقهم العقاب الإلهي، وخُضوعهم – بالتالي- لسُنّة الاستبدال.

كما قام الوحي الخاتم، بوظيفة الهيمنة المعرفيَّة، فصحّح الروايات المتداولة في تراثهم، خصوصًا ما تعلَّق بالإساءة لسيرة الأنبياء والرسل، ونقض بعض المُعتقدات المخالفة للتوحيد، ونسخ عددًا من الأحكام التشريعيَّة لديهم، مثبتًا مرجعيَّته النهائيَّة في تقويم التاريخ الديني العام وتصحيحه.

وفي ضوء ذلك كلِّه، ولتكتمل الصورة، قدّم القرآن تشريحًا دقيقًا للخصائص النفسيَّة والسلوكيَّة لبني إسرائيل واليهود، كشف من خلاله عن الجذور الخفيَّة لانحرافهم وأسباب

عدائهم للدين الجديد ونبيه، محذرًا المسلمين من خطورة هذا العداء وآثاره السلبيَّة، سواء في الزمن النبوي ولحظة نشوء الدولة الإسلاميَّة وانتشار الدعوة المحمديَّة، أم في المستقبل.

ثالثًا: مآلات العداء اليهودي للإسلام والمسلمين

١ - مرحلة المدينة: من التعايش الى المواجهة العسكريَّة

مثّلت الهجرة النبويَّة إلى يثرب (المدينة) تحوّلًا نوعيًّا في مسار الدعوة الإسلاميَّة؛ إذ انتقل الإسلام والمسلمون من طور الاستضعاف في مكَّة إلى طور تأسيس الدولة وانتشار الدعوة على نطاق واسع، وما يميز هذه المرحلة هي أن نبي الإسلام ﷺ سيجد نفسه أمام مجتمع يتكوّن من قبيلتي الأوس والخزرج (الأنصار)، وبقايا المشركين منهم ومن غيرهم من القبائل العربيَّة، ومن قبائل يهوديَّة (بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع..إلخ) مضافًا إلى المهاجرين من مكَّة الذين أسلموا والتحقوا بالنبي ﷺ.

وما إن استقرّ به المُقام، حتى وجد نفسه والمسلمين معه، وجهًا لوجه مع اليهود، وأمام هذا المجتمع المتنوّع، قام النبي ﷺ بتأسيس إطار تعاقدي ينظّم العلاقة بين مكوّنات هذا المجتمع الجديد وتحت قيادته. حيث وضع وثيقة جامعة عُرفت باسم «صحيفة المدينة»، وهي أول وثيقة سياسيَّة – حقوقيَّة، وضعت الأسس القانونيَّة للمواطنة السياسيَّة، والتعايش الديني السلمي في مجتمع المدينة.[١]

وأهمّ من جاء في هذه الصحيفة بالنسبة لليهود، هو: الاعتراف بهم باعتبارهم جماعةً دينيَّة مستقلّة (أهل كتاب)، لهم دينهم وللمسلمين دينهم، واعتبارهم جزءًا من الكيان السياسي للدولة المسلمة الفتيَّة، ما داموا ملتزمين بما اتّفق عليه فيها، مثل إقرار مبدأ الدفاع المشترك عن المدينة ضدّ أي عدوان خارجي، وضمان الأمن الداخلي وتحريم إيواء المعتدين أو نصرتهم،

١ - انظر عن تفصيل ما ورد في هذه الصحيفة، محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسيَّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص٥٧.

والإقرار باستقلالهم في شؤونهم الدينيَّة والقضائيَّة الخاصّة، أي ضمان حقّ الاحتكام إلى شريعتهم في شؤونهم الداخليَّة، وعدم إلزامهم بالأحكام الإسلاميَّة.[1] ومن الناحية الاجتماعيَّة، أكدت الوثيقة على أنَّ من تبع المسلمين من اليهود فله النُّصرة والأسوة، ولا يظلمون أبدًا، وأن بين المسلمين واليهود النُّصح والنَّصيحة والبرَّ دون الإثم، وأنَّ النَّصر للمظلوم، وأن الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثم. ومن الناحية الاقتصاديَّة، اتَّفق رسول الله ﷺ مع اليهود أن يُنفق اليهود مع المسلمين ما داموا محاربين، وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. ومن الناحية العسكريَّة، ذُكر في الوثيقة أن لا تُجار قريش ولا من نصرها، وأنَّ بين اليهود والمسلمين النَّصر على من يُهاجم يثرب، وأنَّ من خرج آمن ومن قعد في المدينة آمن، إلَّا من أثم وظلم[2]. وتكشف هذه البنود أنَّ العلاقة في هذه المرحلة قد قامت على التعايش الديني والسياسي والتعاون الدفاعي، والتعامل مع اليهود بوصفهم شركاء في عقدٍ سياسي مدني، لا بوصفهم خصومًا دينيين أو أعداء. مع استمرار الحوار في القضايا الدينيَّة والعقديَّة، خاصّة في قضايا التوحيد والنبوَّة، مع الالتزام بالجدال بالتي هي أحسن، تبعًا لوصيَّة القرآن: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..**﴾ [العنكبوت: ٤٦].

لكن حالة التعايش هذه بين المسلمين واليهود، سرعان ما واجهت بعض التحدِّيات، خصوصًا بعد انتصار المسلمين في معركة بدر، وبداية اختلال موازين القوى داخل المدينة. فحسب كُتب السيرة، فقد بدأ المسلمون يشعرون بإخلال اليهود ببعض بنود الوثيقة (صحيفة المدينة)، مثل: تسرُّب أخبار عن الاتصال والتحالف مع قريش وقوى خارجيَّة معادية للمسلمين، ومحاولات إثارة الفتن والنزاعات الجاهليَّة بين مكوّنات المجتمع المدني، والتورط في الإرجاف الإعلامي ببثّ الشُّبهات والتشكيك في الإسلام وما يأتي به الوحي. وصولا إلى التورط في التجسس لصالح المشركين، والانقلاب على جميع ما جرى الاتفاق عليه مع المسلمين. وهذا ما أرّخ له

١ - محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسيَّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص٦٤.

٢ - انظر: نوال العتال: يهود المدينة في العهد النبوي، منشور على موقع موضوع كوم.

القرآن أيضًا: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]. مضافًا إلى ارتفاع نسبة التوتّر في الجدال الديني أيضًا، وظهور حالة النفاق من جهة: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢]، وإعلان العداء الصريح لانتشار الدين الجديد من جهة أخرى، وهذا ما أشار إليه القرآن: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].[١]

وبالتالي، فلم يعد الخلاف بين المسلمين واليهود مُنحصرًا في إطار السجال في القضايا التاريخيَّة والعقديَّة والدينيَّة، بل تطوّر تدريجيًّا ليمُسَّ أمن الدولة المسلمة الفتيَّة، ومُحاولة قتل النبيﷺ[٢]. ما أفضى إلى انهيار الثقة التي أسَّست لها صحيفة المدينة.

وهكذا ستبلغ الأزمة ذروتها خصوصًا بعد معركة الأحزاب، وما تبعها من نقض صريح للعهد من طرف بعض القبائل اليهوديَّة، الأمر الذي أدّى إلى إعلان الرسول والمسلمين معه الحرب عليهم، ومن ثمَّ بدأت مرحلة الصراع العسكري، الذي انتهى بالقضاء على وجودهم الاجتماعي والعسكري في يثرب وما حولها وإجلائهم عن جزيرة العرب في ما بعد[٣].

وبذلك، يكون القرآن قد أكّد ما تحدَّث عنه في ما يتعلَّق بخصائص اليهود النفسيَّة والسلوكيَّة، وعلى رأسها نقض العهود، فبسبب ذلك خسروا حالة التعايش التي تمتَّعوا بها، والحقوق التي أعطاها الإسلام لهم. مضافًا إلى خسرانهم تفوّقهم الديني والسياسي والاقتصادي في يثرب،

١ - انظر للمزيد من التفصيل عن علاقة المسلمين باليهود وبداية الخيانة ونقض العهود، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٣٧.

٢ - بخصوص محاولاتهم قتل النبيﷺ انظر: أحمد بن الحسين البيهقي: دلائل النبوة، ج٣ ص ٣٥٤؛ ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٣.

٣ - انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٧٣، وللتعرف على تفاصيل الصراع بين اليهود والمسلمين في المدينة المنورة (يثرب) كما ورد في السيرة: علي ناصر: «الصراع الإسلامي- اليهودي في المدينة المنوّرة -قرءاة تحليلة نقديَّة في التفسير الاستشراقي-، ص١٤٧- ١٥٨.

وما كانوا يُخطّطون له من السيطرة على الأوس والخزرج، وهذا ما زاد من حالة العداء والكراهية والحَنق الشديد، لدى من تبقى منهم للإسلام والمسلمين، واستمرار هذه الحالة إلى الآن.

٢ - الكيد للإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ

شهدت المرحلة اللاحقة لوفاة الرسول ﷺ تسرّب قدرٍ من الروايات والأخبار من التراث اليهودي والإسرائيلي، إلى بعض كتب التفسير والتاريخ الإسلامي، عبر عدد ممَّن اعتنق الإسلام من اليهود، أشهرهم كعب الأحبار ووهب بن منبِّه؛ حيث نُقلت عنهم أخبار تتّصل بقصص الأنبياء وبدء الخلق وبعض أحداث الأمم السابقة. وقد عُرفت هذه المرويَّات في التراث الإسلامي باسم «الإسرائيليات»[1]، وقد أثّرت سلبًا في بعض اتجاهات التفسير والتاريخ والقصص والمواعظ. كما عرفت طريقها نحو موسوعات الحديث النبوي الشريف، الأمر الذي جعل بعض التصوّرات العقديَّة، كالتجسيم والجبر، تتسرب إلى كتب الكلام والعقائد، وتُحدث بلبة وجدالات، كان من نتائجها ظهور عدد من الفرق والتيارات المنحرفة، أو التي قيل أنّ اليهود يقفون وراء نشأتها. وقد اعتبر ذلك استمرارا لحالة الكيد والعداء للدين الجديد ورسالته الخاتمة.

رابعًا: المآلات المستقبليَّة للصراع في ضوء التصوّر القرآني

كما أشرنا الى ذلك من قبل، فإنَّ القرآن الكريم لم يقتصر في حديثه عن بني إسرائيل واليهود، أو ما أطلق عليهم (أهل الكتاب)، على نقد وتصحيح ما ورد في تراثهم التاريخي والعقدي والتشريعي، والكشف عن انحرافهم وبعض صفاتهم النفسيَّة والخُلُقيَّة المذمومة، وما آل إليه أمرهم، وإنَّما تجاوز ذلك إلى بناء رؤية استشرافيَّة تحكمها السُنن الإلهيَّة لتقديم

١ - انظر للمزيد عن الإسرائيليات ودورها التخريبي في التراث الإسلام، محمد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث، ص١٣ وما بعدها.

الدروس والعبر للمسلمين، وفي الوقت نفسه، ليُنبِّههم إلى حقائق مهمة تتعلَّق بمستقبل العلاقة بينهم وبين أهل الكتاب، وأنَّ حالة العداء والصراع لن تتوقَّف بل ستستمر، وأنَّ هناك محطَّات مستقبليَّة للصراع، على المسلمين أن يتهيَّأوا لها وأن يأخذوا حذرهم، فـ ﴿**لَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾[البقرة:٢١٧]. كما كشف القرآن الحالة النفسيَّة التي يعيشها اليهود تجاه الإسلام والمؤمنين به، وأنَّها تتّصف بالعداوة الشديدة: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ [المائدة: ٨٢]. ووصف العداوة بالشدّة، يكشف مخاطر هذه العداوة، وأنّ اليهود لن يتورّعوا عن رُكوب أيّ سبيل للقضاء على الإسلام وتخريبه، وتدمير أي مجتمع إسلامي من الداخل والخارج.

١ - الإفساد في الأرض ومعركة النهاية

وفي إطار منهجه التحذيري من اليهود كشف القرآن للمسلمين عمّا سيقع في المستقبل، فبنو إسرائيل سيفسدون الأرض مرتين: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ...**﴾ [الإسراء: ٤]. في الفساد الأوَّل لم يلتزموا بوصايا الرّب في الأرض المقدّسة، بل انحرفوا عن شريعة موسى عليه السلام وعن التوحيد، وعبادة الله الواحد، وعصوا أنبياءهم وكذَّبوهم بل قتلوا عددًا منهم، فكانت النتيجة أن نزل بهم العقاب الإلهي الشديد: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولا**﴾ [الإسراء: ٥]؛ حيث شُرّدوا عن الأرض المقدّسة وأُخذ كثير منهم عبيدًا وسبايا إلى العراق[1]. وبعد عودتهم إلى فلسطين، كانوا على موعد مرة أخرى مع التشرد

١ - يقول المؤرّخون إن الوعد المفعول قد تحقق في زمن القائد البابلي نبوخذ نصر الذي غزا فلسطين وهدم هيكل سليمان وسبا اليهود، انظر للمزيد من التفصيل: د. عبد الله المسيري: موسوعة اليهود واليهوديَّة والصهيونيَّة، ج١(المدخل التاريخي).

والإجلاء عن الأرض المقدسة، بعد الكفر بنبي الله عيسى بن مريم(عليه السلام)، والتآمر على قتله وصلبه. فقد ثار اليهود على الحكم الروماني لفلسطين آنذاك، الأمر الذي دفع القائد الروماني (تيتوس-Titus) إلى قمع هذه الثورة وتدمير مدينة القدس وإحراق الهيكل الثاني سنة ٧٠م؛ حيث قُتل عدد منهم، وتفرّق كثير من اليهود في أنحاء الإمبراطوريَّة[١].

٢ - الوعد الإلهي المستقبلي وانتهاء حالة الصراع والعداء

لكن القرآن نفسه، يتحدَّث عن عودة اليهود وبني إسرائيل إلى فلسطين مرَّة أخرى، ثمَّ تكرار الإفساد في الأرض والعلوّ الكبير، والنتيجة مرَّة أخرى نزول العقاب الشديد بهم: ﴿**وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا**﴾ [الإسراء: ١٠٤]، بعد هذه العودة والسيطرة على فلسطين والقدس مرَّة أخرى، ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**﴾ [الإسراء:٧]، وفي ذلك إشارة إلى ما هو واقع فعلاً، فقد عاد اليهود إلى فلسطين منذ بداية القرن الماضي، وقد انفجر الصراع بين اليهود(الصهاينة) وبين العرب والمسلمين ولا يزال، وقد تحقّق إفسادهم في الأرض المقدَّسة، بكثرة القتل والظلم الذي يمارسونه يوميًّا؛ حيث قتلوا الآلاف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، ومارسوا الإبادة الجماعيَّة للمسلمين في فلسطين، كما أثاروا كثيراً من الحروب التي سفكت فيها دماء كثيرة، وخرّبوا ودمّروا القرى والمدن في بلاد الشام ومصر والعراق وغيرها من الدول العربيَّة والإسلاميَّة. ولا يزالون يُفسدون، ليس في الأرض المقدسة بل في العالم كلّه، حيث ما من فساد فكري أو خُلُقي أو مالي أو تخريب للطبيعة، إلا ويقف وراءه يهودي أو شخص من بني إسرائيل؟!

لكن الوعد الإلهي، يُؤكّد حتميَّة انتصار المسلمين على اليهود في نهاية المطاف؛ حيث

---

١ - انظر للمزيد عن ثورة اليهود على الحكم الروماني لفلسطين: ويل ديورانت: قصة الحضارة، ج٣، في بحث تحت عنوان: «قيصر والمسيح».

ستتحرر الأرض المقدَّسة، وسيدخل المسلمون المسجد الأقصى كما دخلوه أوَّل مرَّة. وفي التراث الحديثي الإسلامي تفاصيل كثيرة عن أحداث آخر الزمان؛ حيث سيظهر الإمام المهدي عليه السلام، وهو رجل من ذريَّة خاتم النبيّين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ليحقّق الوعد الإلهي بإقامة العدل في العالم، وإنهاء جميع مظاهر الظلم والإفساد والطغيان، ومنها بالتأكيد إفساد اليهود وبني إسرائيل وظلمهم وطغيانهم.

خاتمة

من خلال تحليل الخطاب القرآني والسياق التاريخي، تبيَّن لنا كيف أنَّ العداء اليهودي للإسلام والمسلمين لم يكن موقفًا عابرًا أو ردّ فعلٍ طارئ، بل يُعتبر ظاهرة ذات جذورٍ عقديَّة وتاريخيَّة عميقة. فقد ارتبط هذا العداء بجملة من التحوُّلات المفصليَّة، أبرزها انتقال النبوَّة إلى بني إسماعيل، وسقوط احتكار المرجعيَّة الدينيَّة اليهوديَّة (أهل الكتاب)، ونسخ الشريعة الموسويَّة في عدد من الأحكام، وهذا ما ترتب عليه زعزعة المكانة الرمزيَّة والدينيَّة التاريخيَّة التي تمتَّع بها اليهود قرونًا طويلة. كما كشف القرآن عن محاكمةٍ تاريخيَّة وخُلُقيَّة لتجربتهم، مُقرًّا بعض ما صحّ منها، ومُصحِّحًا ما اعتراها من تحريف وأكاذيب وأساطير، مع النقد الشديد لانحرافهم العقدي والسلوكي، الأمر الذي عمّق حالة العداء والكراهية للدين الجديد ونبيّه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين به.

وقد أظهرت الدراسة أنّ التجربة النبويَّة في يثرب (المدينة)، مثّلت ذروة الاحتكاك الفكري الديني والاجتماعي، وأسهمت في تحويل العداء من مستوى الجدل الديني إلى الصدام العسكري الذي أدّى إلى القضاء على التواجد الاجتماعي والسياسي اليهودي في جزيرة العرب. لكن هذا الصراع سيمتدّ بأشكال أخرى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عبر ظاهرة (الإسرائيليّات)

التي كان لها تأثير سلبي على بعض المجالات العلميَّة المتعلقة بالتراث الإسلامي، خصوصًا مجال التفسير والكلام والفرق. وهذا ما كان القرآن قد حذّر منه، عندما تحدَّث عن العداء اليهودي الشديد للمؤمنين بالإسلام، وأنّ هناك محطّات مستقبليَّة للصراع والعداء بين اليهود والمسلمين، وأنَّ مآل هذا الصراع والعداء سينتهي - في نهاية المطاف - بانتصار المسلمين، وتدمير الوجود الثاني لليهود وبني إسرائيل في الأرض المقدّسة. وبالتالي، الخروج النهائي لبني إسرائيل واليهود من التاريخ الديني للبشريَّة، عندها سيظهر حفيد النبي الإسماعيلي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليملأ الأرض قسطا وعدلا، بعدما مُلئت ظلما وجورًا[1].

١ - وردت في المصادر الحديثيَّة لدى الشيعة وأهل السنة، الكثير من الأحاديث التي تؤكد خروج الإمام المهدي في آخر الزمان، ليقيم دولة العدل والقسط في العالم. وكذلك نزوله ببيت المقدي، أنظر: الهيئة العلميَّة في مؤسسة المعارف الإسلاميَّة: معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام، ج٣، ص١١٩.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- أحمد بن الحسين البيهقي: دلائل النبوة، بيروت، دار الكتب العلميَّة، لا ط، لا ت.
- ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار الأعلمي، لا ت، لا ط.
- أحمد بن يعقوب: تاريخ اليعقوبي، تحقيق: عبد الأمير مهنا، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٩٩٣م.
- آلاء محمد الزيناتي: سفر العدد في توراة اليهود: دراسة ونقض، غزة، الجامعة الإسلاميَّة، كليَّة أصول الدين، رسالة ماجستير، ٢٠١٢.
- الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن في غريب القرآن، قم، المكتبة المرتضويَّة، ط١، ١٣٦٢هـ. ش.
- الهيئة العلميَّة في مؤسسة المعارف الإسلاميَّة: معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام، إشراف الشيخ علي الكوراني، قم المقدسة، مؤسسة المعارف الإسلاميَّة، ط١، ١٤١١هـ.
- زكريا الزميل ورمضان الصيفي: صفات اليهود كما يصوّرها القرآن الكريم: دراسة موضوعيَّة بيانيَّة، مجلة الجامعة الإسلاميَّة- غزة، ج١٨، عدد٢، يونيو ٢٠١٠.
- السيد سابق: اليهود في القرآن، القاهرة، الفتح للإعلام العربي، ط٤، ١٩٩٤.
- عبد الله المسيري: موسوعة اليهود واليهوديَّة والصهيونيَّة، دار الشروق، ط١، ١٩٩٩م.
- علي محمد الصلابي: صفات اليهود في القرآن الكريم، منشور على موقع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، على الرابط الآتي: https://iumsonline.org/ar/
- علي ناصر: الصراع الإسلامي- اليهودي في المدينة المنوّرة قرءاة تحليلة نقديَّة في التفسير الاستشراقي، بيروت، مجلة المنهاج، العدد٥٠، السنة ١٣، صيف ٢٠٠٨م.
- محمد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث، القاهرة، مكتبة وهبة، لا ط، لا ت.

- محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، قم، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٩٧١.
- محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسيَّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، دار النفائس، ط٦، ١٩٨٧.
- نوال العتال: يهود المدينة في العهد النبوي، منشور على موقع موضوع كوم، على الرابط الآتي: https://mawdoo3.com
- ويل ديورانت: قصة الحضارة، بيروت، دار الجيل بالتعاون مع المنظمة العربيَّة للتربيَّة والثقافة والعلوم، ط١، ١٩٨٨م.